

تاريخ القبول: 2023/01/17

تاريخ الإرسال: 2022/02/03

تاريخ النشر: 2023/06/03

التقابل المنهجي بين المناهج اللسانية وعلماء التفسير

The systematic contrast between linguistic approaches and scholars of interpretation

زناتي الحدي¹ شريقن الحبيب مصطفى²جامعة الأغواط (الجزائر)، zenati.8403@gmail.com¹

جامعة الأغواط (الجزائر)، 2mostafech552lagh-univ.dz

مخبر اللسانيات التداولية وتحليل الخطاب

المخلص:

تتمحور الدراسة هذه حول آليات التقارب لكل ما هو لساني حداثي والذي يتماشى ومتطلبات اللغة في النص القرآني والدراسة هاته تخص علماء التفسير باختلاف مشاريعهم في إثراء النص القرآني فهما ومقصدا ودلالة للألفاظ على حسب سياق الآيات القرآنية وهضم للنظريات والمفاهيم اللسانية وما قدمته للغة العربية، من خلال إسقاطات المفاهيم اللسانية على أنظمتها ، والهدف من هذه الدراسة ككل هو معرفة النظريات اللسانية الغربية ومقاربتها بالتراث لإثراء اللغة العربية، وزيادة في المعاني وكذلك من الأهمية أيضا تيسير التفاسير من خلال تعدد القراءات وفهم للمعاني على حسب تغير حركات الألفاظ فيها.

الكلمات المفتاحية: النظرية، اللسانيات، التفسير، الدلالة، السياق، اللغة، المعنى،

القرآن.

Abstract:

This study revolves around the mechanisms of convergence of everything that is linguistically modern, which is in line with the requirements of the language in the Qur'anic text. Linguistic concepts on their systems, and the goal of this study as a whole is to know Western linguistic theories and their approach to heritage to enrich the Arabic language, and increase the meanings, as well as the importance of facilitating interpretations through the multiplicity of readings and understanding of meanings according to the change of word movements in them.

Keywords: theory, linguistics, interpretation, semantics, context, language, meaning, the Qur'an. **Keywords:** (Times

زناتي الحدي: ZENATIHED212@LAGH-UNIV.DZ

1 - مقدمة:

لقد عكف العلماء على دراسة القرآن الكريم بحثاً عن أسرارهِ ومعانيهِ ودلائل إعجازه، وكان أكثر جهدهم موجهاً إلى تفسير أحكامهِ واستنباطها، وظهرت اتجاهات كثيرة في التفسير ومناهج متعددة للمفسرين وتوسل كل مفسر منهجاً مناسباً لفكرهِ وعقيدته فتعددت الآراء وكثرت، ومن حكم الله تعالى أن تكون لهذا القرآن قراءات متعددة ومختلفة ومتغايرة لحكمة تيسره تلاوة وذكره، واتخذها العلماء سنداً للتوجيه، وتمسكت الطوائف المختلفة بالقراءات ففتح باب التأويل وتلمس أوجه الدلالة، حسب اللسانيات أو ما يعرف بالمناهج اللسانية الحديثة لها حضورها الخاص على الساحة اللغوية ولقد كانت الدلالة مجل الدراسة لبعض الباحثين فيها مما أثرى المعاني وزاد من نماء اللغة، أردت في هذه الدراسة أن تكون مقارنة لسانية ما بين اللسانيين المحدثين وعلماء التفسير في فهم مقاصد النص القرآني الشريف الذي استشرف بعض العلماء والباحثين في توضيح بعض المفاهيم الدلالية وإسقاطها على علماء

التفسير لتكون الدراسة أكثر شمولية وأكثر فهما للنص القرآني، ولقد لقيت بعض النظريات اللسانية كنظرية الحقول الدلالية والنظرية السياقية ونظرية الانفتاح الدلالي (التوسع في المعنى عند المفسرين) حضورها الخاص عند المفسرين، مما زاد في فهم المعاني ودقتها، والدراسة كانت وقفات مع بعض المفسرين إن لم يحالفنا الحظ في دراسة البعض الآخر وقد أتينا على توضيح بعض المفاهيم التي درسها المفسرون وبسطوا الشرح فيها في فهم النص القرآني الكريم.

إشكالية البحث:

ماهي الآليات التي اعتمدها علماء التفسير في فهم مقاصد النص القرآني؟ هل استطاعت المفاهيم اللسانية الحديثة أن تقرأ تراث المفسرين من خلال فهمهم لمقاصد النص القرآني الشريف؟

1 - جهود المفسرين في دراسة الدلالة:

لقد أولى العلماء اهتمامهم لدراسة القرآن الكريم بحثاً عن أسرارهِ ومعانيهِ المتسعة ودلائل إعجازه المبهرة ، وكان أكثر جهدهم موجهاً إلى الجانب التفسيري منه .وظهرت اتجاهات كثيرة في التفسير ومناهج متعددة للمفسرين وتوسّل كل مفسر منهاجاً مناسباً لفكره ولعقيدته فتعددت آراؤهم وكثرت ومن حكم الله تعالى أن تكون لهذا القرآن الكريم قراءاتٌ متعددة مختلفة ومتغايرة لحكمة تيسره تلاوةً وذكرًا ، واتخذها العلماء سنداً للتوجيه ، وتمسّكت الطوائف المختلفة بالقراءات ففتح باب التأويل وتلمس أوجه الدلالة.

2- تعدّد وجوه التفسير في الآية الواحدة:

لم يكتف المفسرون في أحيان كثيرة بإيراد وجه تفسيري واحد للفظة القرآنية إذ أنّهم يفسرون معنى اللفظة تفسيراً ما ثم يعقبون هذا التفسير بآخر ومما ذكره على سبيل المثال الرّمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنْفِقُونَ ﴿البقرة/03﴾ إذ قال: " ومعنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زبغ في فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام العود إذ قومه ، أو الدوام عليها والمحافظة عليها... من قامت السوق إذا نفقت" ومنه أيضا ما ذكره في تفسير قوله تعالى { :﴿وَاتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء/125]

يقول " : الخليل المخال وهو الذي يخالك أي يوافقك في خالك ويسرك في طريقك ، من الخل وهو الطريق في الرمل أو يسد خلك كما تسد خله أو يدخلك خلال منازلك وحجيك " ومن الأمثلة كذلك ما أورده في تفسير لفظة (زُرْقًا) في قوله تعالى :﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه / 102]قال في "الزرق"قولان :أحدهما أنَّ الزُّرْقَةَ ابغض شيء في ألوان العيون إلى العرب لأنَّ الروم أعدائهم وهم زرق العيون..... والثاني أن المراد العمى ، لأنَّ حدة من يذهب نور بصره تزرق "ومن أمثلة ذلك أيضا كلمة إذ قال " : والتبئيت من البيوتة لأنَّه قضاء الأمر وتدبيره بالليل يقال هذا الأمر بيت ليل ، والأمثلة كثيرة¹ .

3- جهود اللسانيين المحدثين في دراسة الدلالة :

لقد ظل الدرس اللغوي ولا يزال يبحث عن موضوعه وترافق مع البحث في الدلالة بوصفها أساسا للبحث وجزء منها عند بعضهم الآخر أو مسكوتا عنه أو مبعد عن حقل الدراسات اللغوية عند فريق ثالث، لأن البحث اللغوي غير منفصل عن متكلم اللغة ومحيطه فقد كان تعبيرا عن مشاغل حضارية بها يقف الإنسان إزاء نفسه دارسا وإزاء الآخر باحثا².

البحثُ في التراث أخذ منحين : المنحى الأول يريد التعريف بالتراث من خلال تجميع النصوص وتقديمها أو عرضها للقارئ ولما كانت تقنقد المنهجية ظهر الاتجاه الثاني الذي لا يكتفي بالتعريف بالتراث فحسب بل يحاول أن يعصرن التراث ليتماشى ورؤية المتلقي لعالمه بل هناك من يقر بوجود نوعين من التراث ومنهم

الباحث عبد السلام المسدي الذي يعتقد أن هناك وجهين أو نوعين في قراءة التراث أولهما مذهب القراءة المجردة التي تهدف إلى تسليط مقولات الفكر اللساني المعاصر على التراث اللغوي القديم بغية تقييمه بمنظور المتصورات الفعالة أما المذهب الثاني فيتمثل في محاولة العديد من اللسانيين قراءة التراث اللغوي العربي بحثاً عن منطلق الحديث اللساني المعاصر ورجوعاً بالنظرية إلى روادها قبل دوسويسير³.

وقد خصصت بالذكر دراسة الدلالة عند اللسانيين المحدثين في دراسة بعض الظواهر اللغوية مركزين على ذلك في دراسة اللفظ والمعنى لتكون مضانها دراسة مستنقاة بعضها من الفكر العربي في بعض دارسياها والبعض الآخر حاول أن يؤصل لمفاهيم وفق ما يتماشى والتراث الغربي ،فمن المحدثين الذين كان لهم أثر بالغ في دراسة الدلالة الباحث أحمد مختار عمر بمؤلفاته خاصة علم الدلالة الذي اسقط بعض المفاهيم الغربية في دراسة التراث ، فيما يخص تناوله للنظريات كالنظرية الاشارية التي مرجعها إلى العالمين الغربيين اوجدن وريتشارد في كتابهما المشهور the meaning of meaning فأصحاب هذه النظرية يقولون أن المشار إليه لا يجب أن يكون شيئاً محسوساً قابلاً للملاحظة object المنضدة فقد يكون كيفية quality أزرق أو حدثاً action القتل أو فكرة تجريدية obstract الشجاعة ولكن في كل حالة يمكن أن نلاحظ ما يشير إليه اللفظ لأن كل الكلمات تحمل معانٍ، لأنها رموز تمثل غير نفسها⁴.

كما عرّج على دراسة النظرية السلوكية behavioral thesry على ما يستلزمه استعمال اللغة في الاتصال ، وممن تأثر بها بلومفيلد ولهذا أقر الاتجاه أن المعنى يتألف من ملامح الإثارة ورد الفعل القابلة للملاحظة والموجودة في المنطوقات ، وعرف معنى الصبغة اللغوية بأنه الموقف الذي ينطقها المتكلم فيه

والاستجابة التي تستدعيها مع السامع فعن طريق نطق صيغة لغوية يحث المتكلم سامعه على الإجابة لموقف هذا الموقف و تلك الاستجابة هما المعنى اللغوي للصيغة.⁵

وكذلك أتى على دراسة نظرية السياق من خلال تأثر بالمدرسة الإنجليزية الفيرثية وقد كانت له تقسيمات للسياق ، منها السياق اللغوي linguistic context السياق العاطفي emational context و سياق الموقف situational context والسياق الثقافي cultural context ، كما عكف على دراسة الحقول الدلالية ، وتقول هذه النظرية أنه لكي تفهم معنى كلمة يجب أن تفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليا ، أو حسبما يقول lyons يجب دراسة العلاقة بين المفردات داخل الحقل أو الموضوع الفرعي . ولهذا يعرف lyons معنى الكلمة بأنها محصلة علاقاتها بالكلمات الأخرى في داخل الحقل المعجمي.⁶

4- أوجه الإعراب وأثرها في التفسير وتوجيه المعاني:

جدلية اللفظ والمعنى تمثل في النص القرآني كما تمثل في غيره من النصوص لكنه نص كامل يكمل بعضه بعضا ويسهم بعضه في تفسير البعض الآخر كما تسهم في تفسيره ظروف خارجة عن النص كالسنة النبوية وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرها ، مما يجعلنا نقول أن السياق اللغوي سواء أكان قريبا أم بعيدا مباشرا أو غير مباشر والسياق الخارجي متمثلا في الظروف والملابسات، قد يسهم في استنباط المعنى المراد كما أنهما قد يقومان بدور مميز في التحليل النحوي وهؤلاء المعربون في تطبيقهم قواعد النحو العادي، النص قد يختلفون مع نحاة آخرين في تخريجاتهم أو يعارضون آراء الآخرين منتمين إلى مدارس نحوية أو متفردين بآرائهم الخاصة⁷ .

فالإعراب له دخل هام في فهم معاني آي القرآن وقد تعرض الزَّجَاجِي (ت/337هـ) لإشكالية الإعراب فهو يعد من الذين يرون أنَّ الحركات الإعرابية دالة على معانيها إذ يقول " : إن الأسماء حسبما كانت تعتروها المعاني ، فتكون فاعلة، ومفعولة ، ومضافة ومضافة إليه لا ولم تكن في صورتها وأبنيتهَا أدلة على هذه المعاني بل كانت مشتركة جعلت حركات الإعراب فيها تتبى عن هذه المعاني ⁸ " وقد أشار الباحث تمام حسان في باب القرائن اللَّفْظِيَّة إلى أهمية العلامة الإعرابية ذاكراً إنَّ هذه الأخيرة أوفر القرائن حظاً من اهتمام النُّحاة فجعلوا الإعراب نظرية كاملة سموها نظرية العامل وتكلموا فيه عن الحركات ودلالاتها والحروف ونيابتهَا عن الحركات ثم تكلموا في الإعراب الظَّاهر والإعراب المقدر والمحل الإعرابي، ثم اختلفوا في هذا الإعراب هل كان في كلام العرب؟ أم لم يكن وكان لقطرب ومن تبعه من المحدثين كلام في إنكار أن تكون اللغة العربية قد اعتمدت حقيقة على هذه العلامات في تعيين المعاني النحوية. حدث كل ذلك في وقت لم تكن العلامات الإعرابية أكثر من نوع واحد من أنواع القرائن بل هي قرينة يستعصى التمييز بين الأبواب بواسطتها حين يكون الإعراب تقديراً أو محلاً أو بالحذف لان العلامة الإعرابية في كل واحدة من هذه الحالات ليست ظاهرة فيستفاد منها معنى الباب ⁹ .

5-1. تعدد الأوجه في حالة تعدد العلامة:ـ

وهو أمر بديهي، إذ ينتج عن تعدد العلامة الإعرابية تساؤل عن سبب هذا التعدد ، ففي قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَامَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف/ 26]، قُرئت كلمة لباس بوجهي الرفع والنصب وقد وجه المعربون النصب على العطف يعني وأنزلنا أيضاً لباس التقوى ، وأما وجه الرفع فقد وجهوه على الابتداء على أساس أن (الواو) مستأنفة ، وهو قول جمهور العرب ¹⁰ ، أو على الخبرية لمبتدأ محذوف والتقدير وهو لباس التقوى وقد

ذكره الزجاج والجملة في هذه الحالة معترضة وقد سوى الأخفش بين القراءتين في المعنى فقال : وكل حسن ومعناه واحد¹¹ .

5-2 اختلاف الأوجه في السياق الإعرابي الواحد:

وهو يظهر العلاقة بين المعنى والتفسير عند ابن عاشور من ناحية ويظهر اعتداد ابن عاشور بالأوجه الإعرابية المحتملة للقرآن الكريم من ناحية أخرى ومن ذلك ما يحمله قوله عز وجل من أوجه إعرابية: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة 1/2] وقد ازدحمت كتب التفسير بالأوجه الإعرابية لهذا الجزء من السورة حتى إن أبا حيان لم يستطع التلخيص من ذكره هذه الأوجه بالرغم من أنه عاب على من جعل كلام الله تعالى كشعر امرئ القيس أو الأعشى ، يحمله كل ما يحتمله اللفظ وجوه الاحتمالات إلا ما لبث أن اعتذر لنفسه من ذكره كثيرا مما ذكره بقوله " : لينظر فيه ربما يظهر لبعض المتأملين ترجيح شيء منه " ثم أبان الأوجه الإعرابية في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة 1/2] وعلى هذه الطريقة سار السمين الحلبي فأكثر من أوجه الأعرابية لهذه الآية غير أن ابن عاشور تميز عن كثير من المفسرين في هذا الموضع بأمرين :

الأول : انه ساق من الأوجه ماله علاقة قوية بالمعنى الذي يليق بالقرآن الكريم

الثاني : انه اجتهد في تبیین الدلالة المعنوية لجميع الأوجه التي ذكرها لافتا ، الذي يجمع بين الإعراب اللفظي للقرآن ودلالته المعنوية وإشارته البلاغية¹² .

فهو يحمل في لفظ) الكتاب (أن يكون بدلا من اسم الإشارة أو أن يكون خبرا عن هذا الاسم ، وهذا ما ذكره أبو حيان وزاد عليه من ناحية الأوجه غير أن ابن عاشور يهتم بدلالة كلا الوجهين إذ أنه يرى أنه في حالة البدئية تكون (ال) عهدية فالتعريف فيه إذا للعهدية ويكون المقصود ببيان المشار إليه لعدم مشاهدته¹³ .

والخبر في هذه الحالة هو جملة (لا ريب) وأما في حالة الإخبار بالكتاب فالتعريف هاهنا تعريف الجنس ،ومرادده أن المقصود بالكتاب في هذا الوجه غير المقصود به في الوجه السابق ففي حالة البدلية يكون لفظ (الكتاب ، تنصيصا على القرآن بعينه ، وفي حالة الخبرية يكون إشارة إلى جنس الكتاب على القرآن بسبب تعريف الجزئين. إذ فهو قصرا دعائي ومعناه ذلك الكتاب الجامع لصفات الكمال في جنس الكتب بناء على انه غيره من الكتب إذا نسبت إليه كانت كالمفقود منها وصنف الكتاب لعدم استكمالها جميع كمالات الكتب ، ثم ينتقل إلى الإعراب (لا ريب) فيه على وجهين:

الأول : الوقف على(لاريب)

الثاني وصله على الجار والمجرور بعده وإعراب الوجهين متداول مشهور فعلى الوجه الأول يكون خبر لا النافية للجنس محذوفا مقدرا ويكون و يكون الجار والمجرور افتتاح جملة جديدة وعلى الوجه الثاني يكون الخبر هو الجار والمجرور نفسه ويزيد بن عاشور على إعراب الوجهين دلالة هذا الإعراب فيفصله على ما يلي:

على اعتبار الكتاب خبر لاسم الإشارة ، واسم الإشارة مشيرا إلى الحروف المقطعة في أول السورة ، فان نفي الريب هنا يعد عنده نفيا لريب خاص وهو الريب الذي يعرض في كون هذا الكتاب مؤلف من حروف كلامهم فكيف عجزوا عن مثله ، فكأن المنفي ليس مطلق الريب عن الكتاب وإنما المنفي هو أن يرتاب في عجزهم عن الإتيان بمثله مع انه من الحروف التي يستعملونها ومقتضى ذلك أن دلالة نفي الجنس هاهنا دلالة إنشائها في صورة الخبر المراد النهي لا النفي¹⁴.

6- السياق في الثقافة اللسانية الغربية:

يحتاج البحث، قبل الحديث عن مفهوم السياق في التراث، أن يمرّ، على الأقل بظهور النظرية السياقية ورؤيتها للعلاقة الوطيدة بين البنية والاستعمال، ولكن علينا أن نحذّر في تعاملنا مع ذلك كلّ من الخلط بين مفهوم البنية والاستعمال، يقول الباحث " عبد الرحمن الحاج صالح " موجهًا أنظارنا لهذه القضية: "إنما يفسر اختيار لفظٍ معيّنٍ في تأدية غرضٍ معيّنٍ في حال خطابٍ معيّنٍ وليس المعنى وحده -حتى في هذه الصورة يفسر وجود لفظين معيّنين فما هو راجع إلى اللفظ له قوانينه الخاصة به غير قوانين استعمال اللفظ، فدراسة هذا الجانب الاستعمالي للغة هو الذي يسمّيه الأوروبيون الآن براغماتيك (PRAGMATIQUE) و أصبح الآن الكثير من اللسانيين الغربيين المقلّدين من العرب لا يعرفون إلّا البراغماتيك بل حصروا كل اللسانيات في هذا الجانب الاستعمالي مقتنعين في ذلك بأن بنية اللغة تفسرها المعاني المقصودة في الخطاب و هذا خلط فظيع بينما هو لفظ له بنية قائمة بذاتها حسبما قلنا و بين اختيار هذا اللفظ في حال خطابية معينة ، و السبب يكمن في وقوع نوع من الكلل إزاء البحوث الصورية في ذاتها و النفور من دراستها على حدة أي بعيدا عن كيفية استعمال الناطقين بها و أكثر اللغويين الغربيين المحدثين مولعون بالبراغماتية، أي دراسة استعمال اللغة ، و قوانين استعمال اللغة اجتماعية أصالة و للبنى اللغوية جانب آخر غير اجتماعي و هو ميدان صوري ، و هذا مع الأسف لم ينتبه إليه الكثير من الناس و فيما يخص النحو في حد ذاته فيقولون بأن البنية قتلت بحثًا في اللسانيات الحديثة¹⁵ .

7- المفسرون و السياق :

وضع المفسرون شروطاً في المفسر في إتقانه لمجموعة من العلوم أشبه ما تكون بمراحل التحليل المذكورة في نظرية السياق ، يتصل بالتحليل الصوتي منها

اشتراطهم أن يكون عالما بالقراءات ، لأن علم القراءات يعرف به كيفية النطق بالقرآن ، والقراءات تترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض ، والواقع أن النص القرآني يتميز عن سائر النصوص المكتوبة بهذه الخصوصية الصوتية التي حفظت لنا طريقة أدائه ، ومواضع الوقف والوصل وغير ذلك مما له أثر في تحديد المعنى¹⁶. يتصل منها بالتحليل الصرفي في إتقان التصريف " لأن به تعرف الأبنية والصيغ ، قال ابن فارس " : و من فاته علمه فاته المعظم لأن (وجد) مثلا كلمة مبهمة ، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها " ، ومعرفة الاشتقاق " لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما ، و يتصل منها بالتركيب إتقان علوم النحو و المعاني و البيان و البديع ، أما النحو فلأن المعنى يتغير و يختلف باختلاف الإعراب ، و أما المعاني و البيان و البديع فلأنه يعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى ، و بالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة و خفاءها ، و بالثالث وجوه تحسين الكلام ، و يتصل منها بالمعجم ما يسمونه بعلم اللغة و هو يعني عندهم متن اللغة ، لأن به يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع .

ويتصل منها بسياق الحال معرفة أسباب النزول و هي الأحداث و الوقائع الملازمة للنص القرآني و ليست علل النزول كما قد يذهب الوهم ، و لا شط أن استحضارها يعين على فهم معاني الآيات ، و هو ما ينبه إليه أئمة التفسير ، و بهذه المعرفة يزول الإشكال في فهم كثير من النصوص ، من ذلك قوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَارَةِ مَنْ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران/ 188] ، إذ أشكل فهمها على مروان ابن الحكم و قال : " لنعدن أجمعون حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت

في أهل الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه ، و أخبروه بغيره ، و أروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه و استحمدوا بذلك إليه¹⁷ .

و مما هو بسبب من السياق اللفظي العام اشتراطهم استحضار النص القرآني جميعه عند تفسير بعضه ، فمن أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن فما أجمل منه في مكان فقد فسر في موضع آخر ، و ما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر منه ، يضاف إلى ذلك الاستعانة بالسنة القولية و العملية فإنها شارحة للقرآن ، و موضحة له فإن لم يجده في السنة رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن و الأحوال عند نزوله ، و لما اختصوا به من الفهم التام و العلم الصحيح و العمل الصالح و هذا بالإضافة إلى العلوم الأخرى المشتركة في المفسر و هي أصول الدين و أصول الفقه ، و الناسخ و المنسوخ ، إن هذه الشروط التي اشترطت في المفسر تكشف لنا عن إدراك المفسرين الواعي لعناصر السياق اللفظية و الحالية ، و أثرها في الكشف عن المعنى و الوصول إلى الوجه الدقيق¹⁸ .

8- مكانة السياق في التفسير القرآني:

قد أدرك علمائنا أهمية السياق في الوقوف على دلالة الآية القرآنية ، فأوجبوا على المفسر النظر إلى سياق الكلمات ، و في هذا يقول السيوطي " : و أما ما لم يرد فيه نقل - أي التفسير - فهو قليل ، و طريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب و مدلولاتها و استعمالها بحسب السياق ، و هذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات فيذكر قيذا زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتضاه السياق¹⁹ .

يقول الزركشي " : و معلوم أن تفسيره ، أي تفسير القرآن الكريم ، يكون بعضه من قبيل الألفاظ الوجيزة و كشف معانيها ، و بعضه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض لبلاغته و لطف معانيه ، و لهذا لا يستغنى عنه قانون عام

يعول في تفسير ، و يرجع في تفسيره عليه من معرفة مفردات ألفاظه و مركباتها و سياقها ، و ظاهره و باطنه ، و غير ذلك مما يدخل تحت الوهم و يدق عنه الفهم²⁰ و دلالة السياق عند الشنقيطي: صريحة و غير صريحة إن المتأمل لهذا الكتاب المبارك يجد أن دلالة السياق القرآني لم تكن عند الشنقيطي على درجة واحدة من القوة و الوضوح ، بل كان بعضا صريحا وواضحا ظاهرا في الدلالة ، و بعضها دون ذلك. و من أمثلة ما كان صريحا في الدلالة : عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة/ 51]: ذكر رحمه الله تعالى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة/ 64] و قال " : و الظاهر أنها في اليهود فيما بينهم كما هو صريح السياق خلافا لمن قال إنها بين اليهود و النصارى²¹ . "

ومن الأمثلة للدلالة غير صريحة ما يلي : عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل/ 74]، ذكر الخلاف في جواز المناكحة بين بني آدم والجن ، ثم قال " : بل الذي يستروح من ظواهر الآيات عدم جوازه ، فقلوه في هذه الآية الكريمة: [سورة النحل 72 : تمتا على بني آدم أزواجهم من نوعهم و جنسهم يفهم منه أنه ما جعل لهم أزواجا تباينهم كمباينة الإنس للجن ، و هو ظاهر ، و يؤيده قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿[الروم/ 21]: في معرض الامتحان يدل على أنه ما خلق لهم أزواجا من غير أنفسهم ، و يؤيد ذلك ما تقرر في الأصول من أن النكرة في سياق الامتحان تعم (فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل/ 72]: و جمع منكر في سياق الامتحان فهو يعم ، و إذا عم دل ذلك على حصر الأزواج لنا فيما هو من أنفسنا ، أي من نوعنا و شكلنا²² .

فجعل رحمة الله دلالة السياق القرآني ، التي هي في ذكر الأزواج للإنس دلالة على تحريم اتخاذ الأزواج من ضمير الإنس و هذه الدلالة كما يظهر ليست صريحة في المنع.

فالسِّيَاق كما يقول ابن قيم الجوزية: "يرشد إلى تبين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم"²³. فالمفسرون لم يعدلوا في مراعاة ظاهر المعنى ، وإنما راعوا المعنى الذي يتماشى والسياق. وفي سياق هذا الحديث قد ميَّز ابن تيمية بين نوعين من المفسرين: -صنف راعى المعنى الذي رآه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان.

-وصنف راعى مجرد اللفظ، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به، ولسياق الكلام²⁴.

9- نظرية الإعجاز عند المفسرين و علاقتها بالفكر اللساني الحديث :

كان حتما وقدرا للإعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين العلماء جيلا بعد جيل ، ثم يظل أبدا رحب المدى سخي المورد ، كما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية ، امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمح ، عاليا فوق طاقة الدارسين.

و لم تتفرد قضية الإعجاز في أول الأمر بالبحث و النظر ، و إنما عولجت مع غيرها من القضايا التي نشط فيها الكلام و تجادلت الفرق ، و بخاصة تلك التي تتصل بالنبوة و المعجزة ، كالذي في) تأويل مشكل القرآن (لابن قتيبة) مقالات الإسلاميين (لأبي الحسن الأشعري) وحجج النبوة (للاجاحظ) والانتصار (لأبي الحسين الخياط الذي نقض كتب) الزاؤوندي و منها الزمرد و الدامغ و الفريد في نظم القرآن²⁵ .

و تناولها المفسرون في سياق التفسير ، كالذي في جامع البيان للطبري و مجاز القرآن لأبي عبيدة.

10- وجوه الإعجاز و البيان القرآني :

﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء/88]: فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف و الاجتهاد ، و سبيله التأهب و الاحتشاد ، و المعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة فدل على أن المراد غيرها و الله أعلم²⁶ . و ذهب إلى أن البشر تعذر عليهم الإتيان بمثل القرآن ، لأنه معجزة البلاغة ، جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمنا أحسن المعاني.²⁷

إلى هذا المدى ، يمضي عبد الجبار المعتزلي في الرد على من يتعلق في إعجاز القرآن بالصرفة و بيان وجه فساد إن اعتبر فيها بالألفاظ الموهمة احتمال القدرة على الإتيان بمثله ، في فصاحته ، لولا صرفهم عن ذلك ، و مدار كلامه ، على إعجاز القرآن بفصاحته و التحدي بأن يأتوا بمثله ، و قد تجرد لبيان وجه " اختصاص القرآن بمزية في رتبة الفصاحة خارجة عن العادة " ردا على من قالوا " : فبينوا أن للقرآن هذه الرتبة في الفصاحة ليتم ما ذكرتم²⁸ " .

و حين عرض اختلاف مذاهب العلماء في وجه إعجاز القرآن ، صرح بأن فصاحته الخارجة عن العادة هي وجه الإعجاز و مناط التحدي به ، قال " : و اختلف العلماء في وجه دلالة القرآن : فمنهم من جعله معجزا لاختصاصه برتبة في الفصاحة خارجة عن العادة ، و هو الذي نظرناه و بينا مذهب شيوخنا فيه ، و منهم من قال : لاختصاصه بنظم مباين للمعهود عندهم صار معجزا ، و منهم من جعله معجزا من حيث صرفت همهم عن المعارضة و إن كانوا قادرين متمكنين ، و منهم من جعله معجزا لصحة معانيه و استمرارها على النظر و موافقتها لطريقة العقل²⁹ . "

11- مظاهر الإعجاز في نظم القرآن:

إن للإعجاز في النظم القرآني مظاهر كثيرة ، و بيان ذلك مرده البلاغة الكلامية إلى الدقة في مطابقة اللفظ للمعنى ، و مدى القدرة على تسخير الأول لتجلية الثاني ، و من أهم أسباب ذلك أن يتسارع إلى الذهن عامة ألفاظ اللغة و مترادفاتها بحيث يتكامل تصورها في جانب من الذهن كما يتكامل تصور المعنى في الجانب الآخر منه ، فبمقدار ما يتم من التطابق الدقيق بين المعنى القائم في الذهن الدال عليه و المصور له ، يوصف الكلام بالبلاغة و البيان³⁰ .

و هناك إشارة إلى هذه الملاحظة عند التوزيعيين بزعامة تشومسكي ، إذ يعتمد التحليل الوظيفي، فإذا كان التحليل الوظيفي، يقوم وصفه للوحدات ودراسته لعلاقاتها على مفهوم الوظيفية، ذلك المفهوم الذي يأخذ مكانه ويتسلم فاعليته من ارتكازه على مبدئين :مبدأ الدراسة الصورية المنطلقة من أنّ العملية اللغوية عملية ذهنية ونفسية قبل كلّ شيء، ومبدأ التحليل التفسيري المعتمد على معيار المعنى فإنّ التحليل التوزيعي لا يهتمّ في المنظور الصوري للغة جانبه النفسي والذهني بل يهتمّ ما تسفر عنه الملاحظة العلمية للظواهر اللغوية من قواعد وقوانين تكشف عنها

المواقع التوزيعية المختلفة التي تتخذها الوحدات بانتظام في بنى لغة ما بعيدا عن أي موقف من مواقف التفسير أو التحليل المستندة إلى المعنى³¹.

12- انفتاح الدلالة في النص القرآني الشريف وجه من وجوه الإعجاز المعجب:

من استشراف البواعث التي دعت إلى تناول هذا العنصر هي تلك الملكة البيانية المعجبة، التي تقضي إلى المكث إلى تلمس وجوه الإعجاز في النص القرآني وفق تعدد المعاني في السياق الواحد وتضافرها معا في دلالة السياق الشريف وهذا انفتاح يقع في مستويات متعددة اخترت منها مضمار المستوى التركيبي.

13- المستوى التركيبي:

أما انفتاح الدلالة الواقع في المستوى التركيبي فمواضعه متباينة، ومن ذلك تباين القول على مرجع الضمير، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد/22]. يظهر هذا في السياق الشريف أن ثم ضميرا في قوله: "نبرأها" و قد تقدمه ثلاثة مراجع و هي : المصيبة ، والأرض، وأنفسكم، وليس يخفى أن قواعد المطابقة تأذن بعود الضمير الهاء في "نبرأها" على هذه المراجع الثلاثة المتقدمة ، ليعقب هذا انفتاح دلالي مؤتلف من ثلاثة وجوه :

-أولها : أن الضمير (هائ) عائد على الأرض : من قبل أن نبرأ الأرض.

-و ثانيها : أن الضمير عائد على المصيبة : من قبل أن نبرأ المصيبة.

-و ثالثها : أن الضمير عائد على النفس : من قبل أن نبرأ النفس.

و المستصفي مما تقدم أن تلك المراجع لا تتدافع ، بل هي متقبلة في سياقها صالحة و وجه الإعجاز اللغوي في هذا السياق الشريف هو انفتاح الدلالة في ثلاث شعب دلالية ، و المقصد الدلالي المتعين هو التقرير بالتقدير ، تقدير العزيز العليم قبل أن يبرأ الأرض ، أو النفس ، أو المصيبة ، ذلك أن كل شيء عنده بمقدار

محفوظ في لوح قبل أن يوجد الوجود، فهو الأول بلا بداية ، و الآخر بلا نهاية .³²؛ و الذي يسترعي خاطر ههنا هو اشتغال ضمير واحد و هو الهاء في نبرأها ، على هذه المراجع المتقدمة ، ليعقبه تخلق ثلاثة معانٍ تقضي إلى نفي المعنى بالمطلق ، فالمصيبة التي تحل بالخلق مكتوبة عليهم ، و مقدرة قبل أن يبرأ الله الأرض ، أو الخلق أنفسكم أو المصيبة نفسها ! و يمكن جدا أن يضاف مرجع رابع و هو كلما تقدم ، تبارك الله رب العرش العظيم³³.

و من أمثلة انفتاح الدلالة الواقع في المستوى التركيبي في قوله تعالى: ﴿أَنْ اتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل/ 123] : و نحن نعرب " حنيفًا " في سياقها الشريف حالاً ، و الانفتاح ههنا باعثة تعيين صاحب الحال ، إذ أنه يتردد بين الضمير المستتر في " اتبع " و " إبراهيم "، و ليس يخفى أن لهذا الانفتاح الدلالي علة وهي التشديد على مبدأ الحنفية ، فإذا كان صاحب الحال " إبراهيم " أو " محمداً " صلى الله عليه وسلم ، فالغرض واحد ، وهو الحنفية بصرف النظر عن صاحب الحال³⁴ ومن أمثلة الانفتاح الدلالي الآتي من تعدد المعاني النحوية قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [آق/ 3] : و الظاهر أن " غير " تحتمل أن تكون في سياقها الشريف:

-مصدرا : و أُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ إِزْلَافاً غَيْرَ بَعِيدٍ.

-أو ظرفا : و أُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ غَيْرَ بَعِيدٍ.

-أو حالا : و أُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ إِزْلَافاً فِي حَالٍ كَوْنِهِ غَيْرَ بَعِيدٍ.

إِخَالٌ أَنَّ انفتاح الدلالة يحتمله الإعراب للفتحة " غير " في سياقها يتفق و دلالة السياق الكلية ، فالإزلاف غير بعيد لا في حاله و لا في زمنه ، و لا في تأكيد المصدر ، و اللأفت للخطر أن تلکم المعاني النحوية التي تحتملها كلمة " غير " و هي المصدريّة ، و الظرفيّة و الحاليّة³⁵.

متباينةً ، و لكنها كُلُّها تلتقي معاً لتجمع على تأكيدِ إزلافِ الجنة للمُتقين و ليس باعثُ هذا الانفتاحِ الدلالي اعتباريةً عرضيةً، فهو من الله الذي قَدَّرَ كُلَّ شيء فأحسَّن³⁶ .

نتائج البحث:

لقد لقيت النظريات اللسانية انفتاحا لنظام اللغة العربية الذي يعتبر مائعا نظرا للخاصية التي تمتلكها اللغة العربية وقد اتخذنا الدراسة تقابلية بين ما هو لساني وما جادت به قرائح المفسرين لتقضي الدراسة أكثر شمولية وإنتاجا للمعاني الجديدة وبالتالي ثراء للغة بفعل هذا الاحتكاك غير المتناه، ومن جملة ما خلصت إليه الدراسة: كون اللغة العربية اشتقاقية كان لابد أن تتطور بفعل وجود نظريات تجعل منها لغة متطورة قابلة للتجدد والتجديد.

ضف إلى ذلك قراءة التراث وفق المناهج اللسانية الجديدة مما ينتج المعاني ويجعل اللغة العربية دائما في تطور وآلياتها تتماشى ومتطلبات التطور اللغوي. دعامة أخرى كون القرآن الكريم هو النص الذي يسمو على جميع النصوص دلالة وإعجازا وتطورا زمانا ومكانا، هو يمدُّ اللغة ثراء في تقبل تلك النظريات واحتوائها لتلك اللغة نظرا لنظامها الخاص التي تمتلكه.

المصادر والمراجع:

¹ أحمد أمين دلداز غفور، تفسير الكشاف للزمخشري، دراسة لغوية، طبعة 2010 دار دجلة عمان، 76.

² منذر عياشي، اللسانيات والدلالة، الناشر مركز الإنماء الحضاري، ط2/2007، ص: 113.

صلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع

³ هجري، ط1/2008، الجزائر، ص: 16.

⁴ ينظر: مختار عمر أحمد، علم الدلالة، ص: 54/56.

⁵ ينظر: المرجع السابق نفسه، ص: 68/69.

⁶ المرجع السابق نفسه، ص: 80/79.

محمد أحمد خيضر، الإعراب والمعنى في القرآن الكريم، مكتبة الأنجلو المصرية، ب/ط، ص: 06/05⁷.

الرجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، ط 1979، 3، بيروت
لبنان، ص: 69.⁸

ينظر: حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار
البيضاء، 1994، المغرب، ص: 206.⁹

¹⁰ أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، معني القرآن، ج 2، ط 3 سنة 1983، بيروت، ص: 422.
مشرف بن احمد بن جمعان الزهراني، أثر الدلالات اللغوية عند الطاهر بن
عاشور، ص: 422.¹¹

¹² المرجع السابق نفسه، ص: 428.

¹³ المرجع السابق نفسه، ص: 428.

¹⁴ الزهراني، أثر الدلالات اللغوية عند الطاهر بن عاشور، ص: 429.

ينظر: صلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع
عشر هجري، ص: 366.¹⁵

¹⁶ طاهر سليمان حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، ص: 220.

¹⁷ المرجع السابق نفسه، ص: 222.

¹⁸ المرجع السابق نفسه، ص: 223.

عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية نحوية دلالية، دار
الوفاء للطباعة والنشر، ط 1، الإسكندرية، ط 2007، مصر، ص: 200.¹⁹
²⁰ المرجع نفسه، ص: 202.

محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار علم الفوائد للنشر
والتوزيع، ج 2، ص: 132.²¹

²² المصدر السابق نفسه، ص: 386.

²³ ابن القيم الجوزية: بدائع الفوائد، تح علي بن محمد العمران، ج 4 دار عالم الفوائد
المملكة العربية السعودية، ط 2، 1999، ص 14.

²⁴ أحمد ابن تيمية، مقدمة في التفسير، ط 1/1381هـ، مطابع الرياض السعودية، ص: 356.

- عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرقي، دراسة قرآنية²⁵ لغوية وبيانية، ط3، دارالمعارف، المغرب، ص: 19.
- ²⁶ المرجع السابق نفسه، ص: 88.
- ²⁷ المرجع السابق نفسه، ص: 86.
- ²⁸ المرجع السابق نفسه، ص: 86.
- ²⁹ عائشة بنت الشاطي، الإعجاز البياني للقرآن، ص: 87.
- محمد السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، الناشر مكتبة الكليات³⁰ الأزهرية، ط1، 1978، القاهرة، ص: 62.
- الطيب دبة، مبادئ في اللسانيات البنوية، دراسة تحليلية ابستمولوجية، طبع دار القصة³¹ للنشر، 2001، الجزائر، ص: 193.
- أسعد مهدي عرار، مباحثات لسانية في ظواهر قرآنية، دار الكتب³² العلمية، بيروت، لبنان، ط2008، 1، ص: 24.
- ³³ المرجع السابق نفسه، ص: 24.
- ³⁴ المرجع السابق نفسه، ص: 24.
- ³⁵ المرجع السابق نفسه، ص: 28.
- ³⁶ المرجع السابق نفسه، ص: 28.